ادغام النفس في الاشياء والناس

وأثره في الدين والحنو والوطنية والفن

نرغب ان نشير اولاً الى ان هذا الميل الذي نطمح ان ندل على مكانه من حياتنا العقلية هو من الميول المعتدلة الوادعة ، ولكنه ، على دعته واعتداله ، ليس اقل لصوقاً بنا وملازمة لنا من كثير من ميول النفس القوية الجائشة — التي تثيرنا بعنف على التفطن اليها والعناية بها كلما صادفت ما يرجئها او يُزخر تيارها . فنحن اذ نعالج هذا الميل اذاً لا نعالج احد الميول الشاذة المضطربة التي يسهل على الفاحص النفسي ان يرسم خطاها ويشاهد آثارها ، اذ من المؤكد انه كلما بالغت الصفة النفسية في الشذوذ والانحراف كان من الهين افرادها ومعالجتها منعزلة — نقول اننا اذ نعالج هذا الميل لا نعالج احد الميول الشاذة ، انما نعالج ميلاً طبيعياً يكاد لطبيعيته ينفلت من بين اصابعنا كلما همنا به وحاولنا ان نقسره على الوقوف في مشهد من وعينا . ولذا فاننا فيما سأطالعهُ سأعوّل كثيراً على خبرة القارىء ، اذ يستحيل ان نرسم صورة صادقة لهذا الميل ان لم يسعفنا القارىء باختباراته في هذه الناحية النفسية الخفية التي يكاد يستعصي الولوج اليها من الخارج ، ويكاد لا يصل اليها الباحث عن غير طريق الفحص الداخلي للنفس (الاستبطان)

اما هذا الادغام فبالطبع لا يتم على نحو ما نشاهده من ادغام الاشياء المادية بعضها في بعض . انما هو هذه الغفلة وهذا الذهول عن النفس اللذان يسمحان لشعورنا ان ينسل ويتسرب الى ما يحيط بنا ويلاصقنا من حي او جماد محاولين ان نقسره بعض صفاتنا الانسانية . اوهما يدعان بعض ما يحيط بنا يستغرقنا بصفاته ، فنشعر عندها ، على غير وعي منا ، كاننا اصبحنا بعض هذا الناس او بعض ذلك الشيء . او بتعبير آخر هو ان نستشعر هذه الوحدة العميقة التي تربطنا بالكون والتي يعيننا على تحسسها نسياننا انفسنا قليلاً وخروجنا عن حدود انانيتنا المنطقة . فاساس هذا الميل هو اذاً الشعور بوحدة الاتصال بيننا وبين الاشياء التي تحيط بنا وتكتنفنا ، واستعارة بعض صفاتها او اسباغ بعض صفاتنا عليها ، فنحس عندها كلها اياناً واننا اياها وكأنها اصبحت بضعة منا واننا اصبحنا بضعة منها

ترى صخرة ضخمة تتشبث بصدر جبل يشرف على هاوية عميقة ويبدو لك ان مركز

هذه الصخرة غير ثابت اذ تلاحظ انها ترتكز على سن من الصخر يهم ان يخلي مكانهُ . وانت بالطبع لا يهمك من امر هذه الصخرة شيء . ولكن بالرغم عن ذلك تشعر بان حاسة من القلق الغامض تشيع في نفسك . ويظلُّ هذا الاساس يستولي عليك كلما شهدت هذا المشهد الى ان تخلي هذه الصخرة محلها فيزايلك وقتها الشعور بالقلق كأن في استقرار هذه الصخرة على وضع ثابت استقرار لهذا القلق الذي كان يستولي عليك. وترى عموداً مائلاً يرتكز عليه بناء من الابنية فلا تتمالك ان تميل بجسمك في جهة تعاكس الجهة التي يميل فيها هذا العمود كأنك تحاول ان تسنده وتعدّل مركزه بحيث يقوم مستوياً على قاعدته فلا يسود يخشى عليه من السقوط

ثم تنظر الى ذلك الطائر يحلق في الفضاء مازئاً بهذا الجبار العنيد الذي يكبّلك ويشرك الى الارض فتحس عندها بنشوة السرور تشيع في نفسك وبالغبطة تتمرك حتى ليكاد هذا الاحساس يقفز عن اعصابك بما يشبه حركات ذلك الطائر. هذه ومئات غيرها من الامثلة تشير الى تأصل هذا الميل في طبائعنا وتمكّنه منا . وعبرة هذا ان الانسان مهما قسرتهُ حقائق الحياة وتنازع البقاء على العكوف على نفسه والتوجه اليها في جميع اعماله ، فان فيه من الدوافع والميول الخفية ما يجعله اكبر انسانية مما يفرضهُ عليه النضال في سبيل الحياة

على ان هذا يبدو لنا اتمّ واجلى اذا اعتبرنا بعض الافعال التي نجريها اتجابة لدواعي اتصالنا بالاحياء من الناس او ما يمتُّ اليهم بنسب قوي . وفي الحقيقة ان مجال هذا الميل ووجهته الاخيرة هو الانسان . والواقع انهُ عنصر قوي في نشوء الاديان وتكوينها وفي تركيز كثير من الفضائل الاجتماعية وفي الفنون على اختلاف وجهاتها

* * *

من اي الجهات تأثر الدين بهذا الميل الانساني الصرف ؟ ان تاريخ نشوء الخرافات يتكفّل بالاجابة عن هذا السؤال . فانهُ مما لا شك فيه ان ديانات الانسان القديمة نبتت في ثرى الاساطير التي حاكها خياله وبثها اوهامه . فديانات الامم الحاضرة والامم الغابرة لها من الصلة بهذا الميل النفسي بقدر ما لها من صلات بالخرافات التي حاكتها مخيلة الانسان الاول . ولكن اين نجد الصلة بين ما ندعوه الادغام النفسي وبين خرافات الانسان القديم؟ ليس الجواب بعسير . ويكفي ان نرجع الى هذه الخرافات التي تركها لنا المصريون والكلدان واليونان في الاخص فنرى ان الاوصاف التي كانوا يسبغونها على ابطال خرافاتهم وآلهتهم هي اوصاف انسانية محضة . وآلهة اليونان باوصافهم ونعوتهم وعواطفهم هم اناس لا يختلفون عن سكان نيويورك والقاهرة وباريس. فهم آلهة يحبون ويبغضون، ويختصمون ويتراضون، يحقدون ويتصافون ، يطمعون ويقنعون ، يجدّون ويهزلون ، وهكذا مما له شبه في حياتنا الانسانية

وديانة العبران الاولى متأثرة الى حد بعيد بهذا الميل . فالله العبراني الاول اله قاس يحب شرب الدم والانتقام ويرتاح الى القسوة والبطش . وهذا يصف لنا الى حدّ بعيد نوع الحياة التي كان يحياها هؤلاء القوم البداة وما كان يعتلج في صدورهم من مختلف العواطف الخشنة والاحساسات الغليظة ، لما كانوا يلاقونهُ من شظف العيش وما كانوا يتكبدونهُ من عدوان الامم المجاورة حتى وقر في اذهانهم ان الهم لكي يستطيع ان يبسط عليهم حمايته يجب ان تكون له صفات الشدة والقوة والبطش . وهي الصفات التي كانوا يشهدون آثارها شهوداً متواصلاً

واساس هذا كله الخوف والجهل . فالانسان القديم لما كان يرى اثراً من آثار الطبيعة لا يستطيع تفسيره تفسيراً طبيعيًّا كان يرتدُّ الى مخيلته ويحاول ان يجد صلة تربطهُ بهذه الاشياء التي تروعهُ وتقضُّ مضجعهُ من جهة وتلقي عليهِ ما تلقي من أحساس بالغرابة والدهشة من جهة اخرى . فكان — لذلك — يُسبغ عليها من صفاته وعواطفه ما يرى انهُ يلائم افعالها الشريرة والخيّرة . كان ذلك يسهّل عليهِ تصوّر افعال هذه الآلهة ويسهّل لهُ طريقة العبادة، اذ كان عليهِ ان يتوجه اليها بما يرضي هذه العواطف والاوصاف الانسانية التي اسبغها عليها . وهو بعدُ لم يكن مختاراً في هذا ، لانهُ كان يستحيل عليهِ في ذلك الوقت ان يتصوّر عملاً يقوم بهِ لا يشبه الايدي الانسانية . فكل ما كان يحيط بالانسان القديم من اعمال الطبيعة كان له مثيل من اعمال هذا الانسان نفسه . وليس هذا العجز عن تصور افعال الآلهة منفصلة عن افعالنا الانسانية مقتصراً على الانسان القديم . فان ارقى الطبقات المهذبة الآن يصعب عليها ان تتصور صفات الله والملائكة على خلاف ما عهدناه في البشر . ويكفي ان تنظر الى التصاوير التي خلقها الفنانون لله والملائكة على جدران الهياكل والاديرة لتدرك مبلغ تأصل هذا الميل فينا . والجدل الذي قام حول صفات الخالق وهل يصح ان تطلق عليهِ صفات انسانية أو لا يصحُّ هو اثر من آثار هذا الميل العميق المتأصل فينا . ولعل انجح الاديان عمليًّا هو الدين الذي يُقرُّ بالواقع ويدرك ان مدارك الانسان اقصر واكلُّ من ان تتصور او تتوجه الى شيء لا يشارك هذا الانسان ببعض صفاته المحسوسة . وهذه الاديان الراهنة اكثرها استيلاء على اذهان اصحابها هي الاديان التي لا تتناسى الصفات الانسانية . فتقوم فيها الصفات والاعمال البشرية المعقولة مقام الصفات الغامضة المستحيلة. والذين صوروا لنا الجنة والنار على هذا النحو الذي نعرفهُ والذي نجد لهُ شبهاً في حياتنا الارضية كانوا ادرك للحياة وافهم للطبيعة البشرية ممن حاولوا ان يأتونا باوصاف للعالم البعيد لا خبر لنا بها ولا معرفة

وليس من قبيل المصادفة ان تجمع اكثر الاديان على ان الله خلق الانسان على صورته ومثاله فان في هذه المشابهة بين الله والناس مايدنينا من الله ويجعلنا افهم له واطوع لاوامره. والعبارات التي كان السيد المسيح يكررها على اتباعه من مثل: كونوا كاملين كما ان ابا كم الذي في السموات هو كامل لم تكن الا صدى لما كان يتردد في نفوس هؤلاء التابعين من شوق الى الاتصال بالله ورغبة في ان يفهم بصفاته

وخلاصة القول ان هذا الميل قد لوّن الاديان البشرية قديمها وحديثها بهذه الالوان الانسانية المحضة. ولذا فنحن لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان الانسان يضع نفسه في اديانه

***

اما العواطف التي تتأثر بهذا الميل النفسي فهي ذلك النوع من العواطف الذي تثيره فينا دوافع انسانية، وهو ما نسميه بالعواطف الاجتماعية: كعاطفة الحنو والرأفة وعاطفة الوطنية والحماسة. هذه العواطف واشباهها مردُّها ما نشاهده من نقص او عيب في احوال الجماعة التي نحيط بنا، فنحاول بالفعل او بالنية ان نزيل هذا النقص. فعاطفة الحنوّ التي ذكرنا هي استهجان لما نشاهده من آثار البؤس والشقاء فيمن حولنا. وهي حالات لا نرغب في بقائها فيمن يحيط بنا اذا كانت صلتنا بهم صلة طبيعية لا يفسدها شيء من العداء او الفتور. فالانسان بفطرته يكره ان يرى آثار الشقاء في الغير. ولكن لكي يشعر المرء بعاطفة الحنوّ شعوراً صادقاً لا بدَّ له من ان يساهم الغير في الاحساس بالشقاء. والا فيكون مظهر الشفقة فينا مظهراً كاذباً. والذي يعيننا على مساهمة الغير حس الشقاء ماذهبنا اليه من سعة الخيال وهذا الميل الذي فطرنا عليه من قدرة على ممارسة احوال بواعثها ليست واقعة علينا مباشرة. فليس صعباً ان نستشعر الم الحرمان ولوعة الحزن في الغير مهما كانت العلاقات بيننا وبينه بعيدة والصلات مشتتة. وزداد تأثير منظر الشقاء بلوغاً وشدة فينا كلما كان في احوال الشخص المبتلى ما يشبه ما نحن فيه او ما كنا مرونا عليه في طور من اطوار حياتنا. فالمرأة التي لم تذق مرارة الثكل وآلام الفجيعة لا يبلغ منها الحزن في مشهد الموت مبلغ المرأة التي ذاقت لوعة الثكل ومرارته. فالاخيرة اصبحت طريق الاحزان الى نفسها ممهودة ومعبدة ولذا فهي اسرع تأثراً واكثر استعداداً لادغام نفسها في نفس الثاني فحزن بفقد عزيز. ونحب ان نلاحظ هنا ان المرأة — على الاجمال — اقدر من الرجل على الانسلاخ من شخصيتها والاندماج في غيرها. فهون عليها — والحالة هذه — ان تحس الالم يتلج في نفوس الغير. والذي يشهد مأتماً من المآتم يدرك ذلك جيداً. فهو هناك يكاد لا يسمع نأمة من غير النساء او يرى عبرة تسكبها غير عيونهن. اما الرجال فقد لا يرى احد منهم يندى له جفن. وليس

الفرق ان الرجل جامد العواطف متبلّد الاحساس الى هذا الحد : انما هو ان الرجل اقدر على تقدير الواقع واكثر التصاقاً بشخصيته من المرأة. فلا يستولي عليه من الذهول والغفلة عن النفس ما يستولي على المرأة

وعاطفة الوطنية، وأساسها الشعور بالمظالم الواقعة على الامة والرغبة في ازالتها ، مثل آخر يرينا كيف ان المرء يستطيع ان يحسّ اموراً ويستشعر احوالاً قد لا يكون له بها صلة مباشرة او يكون لها اليه سبيل. فالذين يتحمسون للوطن شاعرين أن في ازالة الحيف عنهُ ترفيهاً عنهم ومغنماً لهم ليسوا اكثر من الذين يتحمسون له وهم لا يشعرون بشيء من هذا او ذاك. انما كل ما يشعرون به هو احساس كالذي يستولي علينا حينما نرى ضعيفاً يتألم او يُظلم ، فنهبُّ لنصرته شاعرين كأن هذا الذي يقع عليه من ظلم ويصيبهُ من الم يصيبنا ويقع علينا. واساس هذا كله هو هذا الاحساس السليم الذي فطرنا عليه — الاحساس بما يحسّه الغير الى حد الذهول عن الواقع ونسيان المشاهد الملموس

ذانك مثلان من عديد الامثلة التي ترينا مقدار اثر هذه النزعة في حياتنا العاطفية ومبلغ ما تحدثهُ من تعميق في غور العواطف. وتثبيت لاصولها في ثرى النفوس

***

ثم في الفنون ما هو اثر هذا الميل ؟ أثره انك اذا ذهبت الى مرسح من مراسح التمثيل او جلست تصغي الى خطيب او وقفت امام احدى الصور الفنية الرائعة او في مشهد من احد الشوارع المشرئبة تضحي بالرغم عنك غير الشخص الذي كنتهُ قبل ان تشهد هذه الامور، وتحسّ كأن هذه المشاهد التي تجري امامك والآيات التي تواجهك ليست بمعزل عنك مهما حاولت ان تنفصل عنها وتقف امامها موقف المرتاب الناقد الذي لا يهمهُ سوى الدرس والانتقاد ، او موقف المتلهي الذي يتطلب شيئاً يطارد به جيوش السآمة والملل. انت امام فرقة تمثل هملت او مكبث او كليوباترا . فما هو موقفك هنالك ؟ أتستطيع ان تقول انهُ موقف من يودُّ ان يستعرض حوادث هذه الرواية استعراض الصرّاف نقوده ليرى صحيحها من زائفها ؟ او تستطيع ان تقول انهُ موقف المتفكّه الذي يدرك ان ما يجري امامهُ هو من قبيل الرمز الى اشياء قد لا تقع مرة واحدة في الحياة ؟ ما نخالك تقول هذه او تلك

أيها القارىء اذا كنت ممن اعتادوا الجلوس امام منصة التمثيل قد تكون نقاداً تحمل اقلامك وأوراقك وقد تدرك تماماً ان ما يجري امامك ليس الاّ خيال شاعر ، ولكن بالرغم عن هذا وبالرغم عما تفرضه عليك آداب الجلوس في المراسح قد لا تملك نفسك في بعض ادوار هذه الرواية او تلك ان تصرخ صرخة خانقة او تصفّق بيديك او تصفّر

خدّك او تنقبض ملامحك وتجهم او تشيح بوجهك هنا وهناك علامة على الاشمئزاز. فما الذي دهاك؟ هل انت احد الممثلين وهل طلب اليك الحضور ان تجري هذه الامور لتنغص عليهم لذاتهم وتفسد عليهم متعهم؟ الحق انها ليست هذه ولا تلك انما هو هذا الميل الغريب الذي انساك نفسك وجعلك راغماً تدغم نفسك في هؤلاء الممثلين فتبكي اذا كان ما يُبكي او تضحك اذا كان ما يضحك او تتجهم اذا كان ما يوجب التجهم. ومن هنا كان مقياس الاجادة في التمثيل هذه الغفلة عن النفس التي تسري جمهور المشاهدين، ومن هنا كان لا يصحّ ان يقال ان التمثيل لهوٌ وتسلية وان جمهوراً تستغرقهُ رواية من الروايات الرائعة الى حد الذهول عن النفس لا يجوز ان يقال انهُ يلهو ويتسلى. والصحيح ان يقال انهُ يمارس الحياة الشيقة الرائعة ويروض عواطفه ومشاعره ويتعلم كيف يمقت الرذيلة ويمجد الفضيلة. واذاً فالفن هو فن على قدر ما يستولي علينا ويستغرق حواسنا ومشاعرنا

واليك هذا الخطيب: يكون في اول الامر متدفقاً كالسيل غنيًّا كالبحر، ولكن فجأة يرتج عليه ويستعصي عليه الكلام. وقد تطول مدة ذلك فتحسّ عندها كأن غمة تغشاك وتودّ لو تخسف الارض بك وتغيبك عن الانظار، كأنما انت الذي يقف على منصة الخطابة واجماً ترمقهُ العيون وتتحداه الملاح. بل قد لا تحجم ان تغطي وجهك بيديك تريد ان لا يراك احد. واذا فتح الله على خطيبنا وانحلت عقدة لسانه تنفّستَ الصعداء وأحسستَ كأن جبلاً ازيح عن صدرك. وسرّ هذا انك والخطيب الذي ملك عليك نفسك بسحر بيانه اصبحتما متدانين متلاصقين الى حدّ ان تحسب نجاحه نجاحاً لك وخذلانه خذلاناً لك ايضاً. ومن هنا استولى عليك من قلق في الاولى وارتياح في الثانية

ومجال هذا الميل في استحسان آيات الفن الصامتة: الطبيعية والصناعية هو مجال واسع. فنحن اذ نقف خاشعين امام جبل اشمّ او بحر خضم او شلال متدفق نشعر بارتياح عظيم قد لا يفسره الا ميلنا الى انصاق ذواتنا بما يحفّ بنا، حينما نبشّر لنا اسباب ذلك، فنستشعر بعض صفاته. فالجبل المنيع في بسيط من الارض قد يمس فينا مرآة احساس الكبر والجلاء كأن نفوسنا كبرت وتضخمت الى جانبه. والبحر المسترخي استرخاء النائم قد يكون سبب روعته انهُ يبعث في نفوسنا احساس الخلود والابد فنقف امامه خاشعين خشوع العاجزين. والشلال المزبد المندفع نرى فيه معنى الاندفاع والحياة فيروعنا ومثل هذا يقال فيما يروعنا من كثير من آيات الفن التي سوّتها يد الطبيعة او يد الانسان

شرقي الاردن اديب عباسي